بسم الله الرحمن الرحيم

دروس
من محنة البوسنة والهرسك

تأليف

الاستاذ محمد قطب



مقدمة

محنة البوسنة والهرسك من أبشع ما مرَّ بالمسلمين في التاريخ، وإن لم تكن هي المذبحة الأولى بالنسبة إليهم[١]، ولا هي كذلك المذبحة الأولى بالنسبة للمسلمين في التاريخ. فقد سبقتها مذابح التتار[٢]، ومذابح الصليبيين للمسلمين في بيت المقدس أيام صلاح الدين[٣]، ومذابح الأندلس عند سقوط غرناطة، ومذابح الهنود وقت انفصال باكستان عن الهند[٤]، والمذابح المستمرة داخل الهند وكشمير، وحرق القرى الإسلامية على سكانها أحياء، ومذابح صبرا وشاتيلا على يد اليهود في لبنان... وغيرها وغيرها خلال التاريخ.

كلا! ليست هي المذبحة الأولى لأهل البوسنة والهرسك، ولا هي الأولى للمسلمين في التاريخ، ولكنها مع ذلك قد تكون أبشعها... لا لشناعة ما ارتكب فيها من الفظائع فحسب، ولكن لموقف العالم أجمع من المذبحة، وموقف العالم الإسلامي ذاته. فالتكتل الصليبي الصهيوني لم يكن في يوم من الأيام أشد تآمراً على الإسلام منه اليوم، ولا أشد إحاطة بالعالم الإسلامي من كل منافذه، والعالم الإسلامي من جهة أخرى لم يكن في يوم من الأيام أشد هواناً على نفسه وعلى الناس منه اليوم، ولا أشد ضعفاً وتخاذلاً وضياعاً في كل اتجاه.

ومع ذلك فإن المحنة لا تمضي بغير دروس تستفاد منها. والتاريخ دائماً مفعم بالدروس سواء منه أمجاده الشامخة ومنحدراته السحيقة.

وقد تحدثت في هذه العجالة عن بعض تلك الدروس، وهي – على وجه التأكيد – ليست كل ما يمكن أن تستخرج منه العبرة في هذه المحنة،

---

[١] في بحث ألقاه أحد الطلاب البسنويين في جامعة أم القرى (عام ١٤١٢ هـــ)، قال: (إن هذه هي المذبحة التاسعة منذ انسحاب الجيوش العثمانية من البلقان إلى اليوم. ومن الحقائق التي يتكتم عليها الإعلام الغربي، أنه في حكم تيتو وحده – وقد حكم يوغسلافيا فترة مديدة – قتل ثلاثة أرباع مليون من المسلمين ، وقد كان تيتو يهودياً كما هو معلوم).

[٢] يروي المؤرخون أن النهر جرى أحمر من دماء المسلمسن أربعين يوماً في بغداد أيام غارة التتار.

[٣] كانت هناك هدنة قائمة بين صلاح الدين والصليبيين، فنقضوا الهدنة، وأغاروا على المسلمين على حين غرة، فلجئوا إلى المسجد فدخلوه وراءهم وأعملوا القتل والتذبيح فيهم وهم عزّل من السلاح وتروي مصادرهم التاريخية أن الخيل غاصت حتى ركبها في دماء المسلمين داخل المسجد.

[٤] قتل في تلك المذابح تسعة ملايين من المسلمين في أثناء عبورهم من الهند إلى باكستان، وذلك بعد أن أمنتهم الهند على أنفسهم عام ١٩٤٧ م.

ولكنها أشد ما وقع في حسّي منها، وأنا أتابع أخبارها كل يوم في الصحف وغيرها من وسائل الإعلام.

وكل درس من الدروس التي تحدثت عنها هو إجابة عن سؤال:

- لماذا وقعت هذه المحنة على هذه الصورة التي فاقت في بشاعتها كل تصوّر؟

- لماذا يقف الغرب وقفته المتبلدة المتراخية التي لا تنبض بنبضة خير ولا عاطفة إنسانية؟

- ما طريق الخلاص للأمة الإسلامية من هذا الهوان الذي تعيش فيه؟

- ولمن المستقبل في الصراع الوحشي الدائر اليوم بين الغرب والإسلام؟ أهو للبربرية الأوربية كما بدت واضحة في هذه المحنة... أم للإسلام؟

وما تفي هذه العجالة بطبيعة الحال بأكثر من خطرات خاطفة حول كل سؤال... سريعة كسرعة الأحداث...

اللهم لا حول ولا قوة إلا بك، أنت ناصر المستضعفين، ومغيث المستصرخين بك في كل مكان على الأرض، لا يعجزك تجبر المتجبرين ولا كيد الكائدين، وأنت الذي تقول للشيء كن فيكون.

اللهم ألهم هذه الأمة أن تعود إليك، ومُنَّ عليها بنصرك الذي وعدت... أنت جبار السموات والأرض، وأنت أرحم الراحمين.

محمد قطب



(١)
بشاعة المحنة

لا تفي الكلمات بالوصف...

إن اللغة - أية لغة - لا تملك إلا ألفاظاً محدودة تصف بها الأشياء والوقائع والأحداث، وفي نطاق هذه الألفاظ المحدودة، يدخل القليل من الشيء والكثير منه العنيف منه والضئيل، الحادّ منه والعادي، وحتى حين تحاول الدقة في الوصف فتضيف كلمة لتحدد المقدار أو تحدد النوع، فإنك تظل محكوماً في التعبير بالنطاق المحدود الذي تحدده اللغة وتحدده الألفاظ.

وثمت قيد آخر يعوق توصيل الصورة الكاملة إلى الأذهان.

إن الكلمة تستمدّ معناها في ذهن القارئ أو السامع من حدود تجربته الخاصة سواء كانت تجربته هي المعاناة الذاتية أو رؤية المعاناة رؤية العين... ولا يمكن أن تزيد على ذلك مهما كنت دقيقاً في الوصف!

ولقد عانيت ذلك حين كان يسألني بعض الشباب: أصحيح ما نشر عن التعذيب في السجن الحربي؟ فأقول لهم: لا! إن الواقع أفظع بكثير مما تصوره الألفاظ! فيتعجبون: كيف؟! فأقول لهم: إذا لم تكن جربت لذعة السوط على جسدك، أو رأيت مدى الألم الذي تحدثه لذعة السوط في إنسان يُضرب أمامك، فكيف يمكن أن تتخيل الصورة، إذا قلت لك إن أحد المعذَّبين قد ضُرب بالسوط؟! وإذا قلت لك إنه ضرب مائة سوط، فكيف تكون الصورة عندك؟ وإذا قلت لك إنه ظل يُضرب ساعة كاملة يتعاور عليه الزبانية كلما تعب منهم واحد استبدل به آخر؟ وإذا قلت لك إنه ظل يضرب حتى أغمى عليه، فأعطى المنبهات ليفيق، ثم أعيد ضربه من منتصف الليل إلى الفجر؟! ثم تكرر ذلك على مدى بضع ليال؟!

هل يمكن أن تتكون لديك صورة عن الحقيقة من خلال هذا الوصف، ما لم تكن على الأقل قد ذقت لذعة سوط واحدة على جسدك، أو في أقل القليل رأيت مدى الألم الذي تحدثه لذعة السوط في إنسان يضرب أمامك؟

وما ذلك إلا نوع واحد من أنواع التعذيب التي تستخدم في سجون الطغاة، والتي لا يمكن للسامع أو القارئ أن يتخيل حقيقتها مهما دقَّ الوصف، ما لم تكن له تجربة ذاتية أو رؤية ذاتية لألوان العذاب...



كلا! لا تفي الكلمات بالوصف...

تقول: وحشية؟! تقول: إجرام؟! تقول: بشاعة؟! تقول: شيء لا يحده الوصف؟!

ماذا تعني الكلمات كلها عن حقيقة الواقع؟!

خذ هذا الوصف على لسان "شفارتز" عضو الحزب الديمقراطي المسيحي الحاكم في ألمانيا، والعضو في الوقت ذاته في البرلمان الألماني، يروي بعض فظائع الصرب في البوسنة تحت عنوان "ذلك كله رأيته بعيني":

- رأيت طفلاً لا يتجاوز عمرة ثلاثة الأشهر مقطوع الأذنين، مجدوع الأنف!

- رأيت صور الحبالى وقدد بقرت بطونهن، ومُثِّل بأجنتهن!

- رأيت صور الشيوخ والجال وقد ذبحوا من الوريد إلى الوريد!

- رأيت الكثيرات ممن هتكت أعراضهن، ومنهن من تحمل العار ولم يبق لولادته سوى أسابيع!

- رأيت صوراً لمن ماتوا ولم يبق عليهم البرد القارس، بعد أن أخطأتهم رصاصات الغدر الصربية!

- رأيت صوراً لم أرها على أية شاشات تليفزيونية غربية أو شرقية، وأتحدى إن كانت عند هؤلاء الجرأة والشجاعة لبثها!

- إن ما رأيته لن أنساه أبداً[٥]!

---

(٥) نقلاً عن نشرة منظمة البر الدولية، إدارة الدراسات والإعلام يوم ١٦ / ٧ / ١٤١٣ هـ.

وخذ هذه الحادثة التي روتها الصحف كلها في حينها: طفل رضيع أمسك به وحوش الصرب، فوضعوه على النار ليشوى أمام عيني والده، فلما تم شيه قطعوه قطعاً وأجبروا أباه، تحت تهديد الرصاص، على أن يأكل من لحم طفله - فلذة كبده - ثم أطلقوا عليه الرصاص فقتلوه!

فإذا أضيف إليك بيان أعداد القتلى والجرحى والمشوَّهين، وأعداد النساء اللواتي اغتصبهن الوحوش وكلها بعشرات الألوف وبعضها بمئات الألوف... فهل تكونت لديك فكرة - ولو مصغرة - عن مدة بشاعة المحنة، ومدة وحشية الوحوش؟!



كيف حدث ذلك؟

فأما الحقد الصليبي ووحشيته، فلن نتكلم عنه هنا، فقد خصصنا له الدرس الثاني من هذه العجالة. إنما نتكلم هنا عن المحنة من جانبها الآخر... جانب الأمة الإسلامية.

كيف حدث ذلك؟

هل أخرج الله هذه الأمة لتصير إلى هذا الهوان الذي صارت إليه، حتى يقتحمها اللصوص وقطاع الطرق وسفاكو الدماء من كل جانب ولا تتحرك؟ لا نقول لتأديب المعتدين وتلقينهم درساً لا ينسونه، بل نقول فقط لصد العدوان، وحماية الددماء والأعراض والأموال أن تنتهك على هذا النحو المخزي الذي تجري به الأمور؟!

هل أخرج الله هذه الأمة لتتلقى في كل يوم لطمة من هنا ومن هناك؟! مذابح البوسنة والهرسك، مذابح كشمير، مذابح سرى لانكا، مذابح طاجستان، مذابح بورما... هدم المسجد البابري... إبعاد أربعمائة ونيف من المسلمين من وطنهم - فلسطين - من مفكريها وعلمائها ومثقفيها، ليحدث لهم ما يحدث وهم يواجهون عواصف الثلج في العراء، والأمة لا تتحرك؟!

أهذه أمة الإسلام؟!

أهذه التي قال الله فيها: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٠]؟

أهذه التي قال الله فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٣]؟

أهذه التي تلقت الوعد الرباني: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـًٔا﴾ [سورة النور، الآية: ٥٥]؟

ما أبعد الصورة عن الأصل... وما أبعد الواقع عن المفروض!



لقد أخرج الله هذه الأمة لمهمة ضخمة اختارها لها من بين الأمم...

اختارها ليبعث منها الرسول الخاتم ﷺ، ولتحمل رسالته من بعده: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية: ١٦٤].

اختارها لتكون المصباح المنير، الذي ينير للبشرية طريقها، فتخرج بإذن ربها من الظلمات إلى النور.

اختارها لتكون رائدة للبشرية، تعلمها حقائق الوجود الكبرى، وتمنحها منهج الحياة الصحيح. تعلمها أنه لا إله إلا الله، فتتحرر بذلك من عبادة الآلهة الزائفة التي تهبط بالكيان البشري، وتفسد حياة الإنسان، وتعلمها الإجابة الصحيحة عن أسئلة الفطرة التي تراودها بوعي أو بغير وعي، تبحث عن الجواب: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نذهب بعد الموت؟ ولماذا أتينا؟ وكيف ينبغي أن نعيش؟ فتقول للناس - بما علمها ربها - أتينا من عند الله، هو خالقنا على هذه الصورة البديعة التي صورنا بها،

وإليه نعود بعد الموت ليحاسبنا على أعمالنا في الحياة الدنيا، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [سورة النجم، الآية ٣١].

وأتينا لنعبد الله وحده بلا شريك، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات، الآية ٥٦]، وذلك بأن نعتقد وحدانيته الخالصة، ونوجه كل ألوان العبادة إليه وحده، ونتحاكم إلى شريعته، ونعمر الأرض بمقتضى المنهج الرباني.

اختارها لتكون نموذجاً واقعياً للمنهج الصحيح الذي أنزله الله ليصلح به حياة الناس في الأرض، وليقوم الناس بالقسط، النموذج الذي يتم فيه تطبيق الدين بعد اكتماله، وتبرز فيه صورة النعمة الربانية بعد تمامها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ [سورة المائدة، من الآية: ٣].

اختارها لتعلِّم البشرية - من خلال سلوكها العملي - كيف تفكر؟ كيف تعيش؟ كيف تدير سياستها واقتصادها واجتماعها وسلمها وحربها؟ وكيف تمشي في مناكب الأرض لتأكل من رزق الله؟ كيف توجه مشاعرها؟ وكيف تقوم بتبعاتها؟ وكيف تتعامل بعضها مع بعض؟

وأعطاها - وهو يختارها لهذا كله - مفتاح السر الذي يمكّن لها في الأرض، ويمكّنها من القيام برسالتها: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به من بعدي لن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنتي)[٦].



كتاب الله، والسنة النبوية الشارحة للكتاب، المبينة لمراده، هما السر الذي تكمن فيه كل قوة هذه الأمة، وكل وجودها، وكل منهجها، وكل فلاحها في دنياها وآخرتها.

وبالنسبة للجيل الأول - رضوان الله عليهم - كان هذا واضحاً تماماً، ويقيناً لا يتطرَّق إليك الشك.

---

[٦] رواه أبو داود.

كانوا يعلمون جيداً أنهم - قبل هذا الكتاب - لم يكونوا شيئاً مذكوراً، كانوا أمة على هامش الحياة، وعلى هامش التاريخ، بل لم يكونوا أمة أصلاً... كانوا مجموعة من القبائل المتناحرة المتنابذة، لم تستطع رغم وحدة اللغة، ووحدة الأرض، ووحدة الأعراف ووحدة المعتقدات أن تكون أمة... فلما آمنت بالكتاب الذي نزّل إليها لم تصبح أمة فحسب، بل أصبحت هي "الأمة"... بل أصبحت ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وعلى هدى الكتاب ساروا؛ فانفتحت لهم الأرض... وانفتحت لهم الآفاق...

لم تكن الأرض المادية بسهولها وجبالها وأنهارها وثمارها هي أهم ما انفتح أمام الأمة... إنما كانت قلوب سكان الأرض، التي تفتحت للهدى الرباني فآمنت أنه لا إله إلا الله وانضوت تحت المظلة الربانية التي يظلل الله بها عباده الراغبين في عبادته.

إن أعظم هدية أهدتها هذه الأمة للبشرية هي هذا الدين... دين التوحيد... وأكبر نجاح نالته هذه الأمة هو نشرها لهذا الدين في الأرض، ليخرج الناس - بإذن ربهم - من الظلمات إلى النور: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة: الآيتان: ١٥ - ١٦].

ولم تكن الأرض بسهولها وجبالها وأنهارها وثمارها وقلوب سكانها هي كل ما فتحه هذا الكتاب للأمة التي آمنت به، إنما انفتحت لها - بالكتاب - آفاق غير معهودة لها، وغير معهودة للبشرية.

انفتحت لها آفاق في سياسة الحكم غير معهودة، تمثلت في الخلافة الراشدة بنماذجها الفذّة التي يعرفها التاريخ.

وانفتحت لها آفاق في الحياة الاقتصادية غير معهودة، تمثلت في تكافل الأمة بعضها مع بعض، بحيث يحمل القادرون غير القادرين، ويحمل بيت المال المحتاجين إلى راية الدولة وكفالتها.

وانفتحت لها آفاق في العلاقات الاجتماعية غير معهودة، تمثلت في الأخوة التي تربط الأمة بعضها ببعض، وروابط الأسرة التي يتأسس عليها

المجتمع، واحترام الناس بعضهم لبعض، وأداء كل إنسان لواجباته قبل أن يتقاضى حقوقه، وحرص الناس ألا يتظالموا، بل يحب الإنسان لأخيه ما يحبه لنفسه.

وانفتحت لها آفاق في الفكر والنظر غير معهودة؛ فتكونت لها ثروة فقهية فريدة ومنهج في العلم لم يكن معروفاً من قبل - هو المنهج التجريبي - تقدمت به العلوم تقدماً مشهوداً في التاريخ...

وانفتحت لها آفاق في الحضارة وعمارة الأرض غير معهودة، حضارة تشمل الإنسان كله: عقله ووجدانه، جسمه وروحه، عبادته وعمله، دنياه وآخرته، كلها في نسق واحد متآلف متجانس لا صدام فيه بين الدين والعلم، أو الدين والفكر، أو الدين والحياة... أو الإيمان بالغيب والإيمان بالعالم المشهود...

ومن هذا كله - النابع كله من الإيمان بالكتاب المنزل - استجمعت الأمة كل وسائل التمكين في الأرض: من قوة مادية وقوة معنوية... فتحقق لها موعود الله في الأرض: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [سورة النور، الآية: ٥٥].

وفي الآخرة يتحقق موعود الله للمؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [سورة البينة، الآيتان: ٧، ٨].



فكيف صنعت هذه الأمة بدينها وبكتابها بعد أن مكَّن الله لها في الأرض بضعة قرون، وعرفت من فضل الله ما لم يتح لأمة أخرى في التاريخ؟

هل وفت بالشرط الذي تكفَّل الله في مقابله بالاستخلاف والتمكين والتأمين؟ ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أم تفلتت وانحرفت، وتقاعست، وتواكلت، وأبدلت بالطريق السَويّ طرقاً ما أنزل الله بها من سلطان؟!

وحين فعلت ذلك كله، فكيف كانت النتيجة؟

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد، الآية: ١١]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٥٣].

وكما حدث تغير النفوس يالتدريج، حدث تغير النعمة كذلك بالتدريج... خطوة بخطوة على المنحدر الهابط على الدوام...

والذين لا يدركون السنَّة الربانية مع الأمة المؤمنة يرجعون الهبوط إلى أسبابه الظاهرة، الجهل، والتخلف، والضعف الحربي والعلمي والاقتصادي والسياسي والفكري... إلخ.

وكل ذلك قد حدث بالفعل... ولكنه لم يكن السبب الأصلي، إنما كانت هذه كلها أعراضاً نشأت عن السبب الأصيل.

السبب الأصيل هو الانحراف عن طريق الله... هو الضعف التدريجي في التمسُّك بمصدر القوة والاستخلاف والتمكين: "كتاب الله وسنة رسوله".

إن الله لم يخرج هذه الأمة لتكون أمة جاهلية جديدة تضاف إلى ركام الجاهلية!

ولو أرادها كذلك لعاملها سبحانه بالسنَّة التي يجريها على الأمم الجاهلية!

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٤٤]، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [سورة هود، الآيَة: ١٥].

فالسنَّة الربانية التي يجريها الله على الأمم الجاهلية أنهم بقدر ما يريدون الحياة الدنيا ويعملون من أجلها، ويتخذون الأسباب لها، ويبذلون الجهد فيها، يوفّي الله لهم أعمالهم فيها. ويكلهم إلى الأسباب، ويفتنهم بها، فيحسبون أن الأسباب بذاتها هي التي تؤدي إلى النتائج... وتكون هذه فتنتهم، حتى يفاجئهم الله بمعقبات السنة في الدنيا أو في الآخرة، أو في كلتيهما جميعاً: ﴿فَلَمَّا

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآيتان: ٤٤، ٤٥]، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦].

أما الأمة التي أخرجها الله لتكون "خير أمة" ولتكون شاهدة على البشرية، ولتكون مصباح الهدى الذي يخرج الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور، فلها عند الله شأن آخر. ولقد علّمها شأنها ذلك في كتابه المنزل، وفي سنة رسوله ﷺ وأراها في الواقع المشهود مصداق هذا الشأن، والطريقة التي يتم بها في واقع الأرض.

قال لها: إن المفتاح هو ﴿آمَنُوا﴾ و ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

هذه هي "الأسباب" المؤدية إلى التمكين والتأمين والاستخلاف.

والذي تفتنهم طريقة الغرب في "اتخاذ الأسباب" والاعتماد عليها، يصيحون عجباً، أو يصيحون سخرية: آلإيمان وحده يؤدي إلى التمكين في الأرض بغير "اتخاذ الأسباب"؟! وماذا يفعل الإيمان إزاء القوة المادية والتقدم العلمي والتكنولوجي وأسلحة الدمار الشامل؟!

وهنا الدرس الذي ينبغي أن نعيه حق الوعي، لنعمل بمقتضاه...

إنه منذ أخرج المرجئة "العمل" من مقتضى "الإيمان"، وقالوا: الإيمان هو التصديق والإقرار وليس العمل داخلاً في مسمى الإيمان، بدأ أول اختلال ضخم في حياة الأمة، وتصور الناس أنه يمكن أن يوجد إيمان بغير عمل بمقتضى الإيمان.

أما الأجيال التي عرفت دينها على حقيقته، ومارسته في عالم الواقع، فقد عرفت أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عقيدة وشريعة ومنهاج حياة كامل[٧]، وأنها - في الرسالة المحمدية - ذات مقتضيات ضخمة تشمل الحياة

[٧] راجع إن شئت كتاب "لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة".

كلها، لا يندّ منها شيء خارجها، وأنها لا تتحقق بتمامها إلا حين تمارس مقتضياتها في عالم الواقع، وأنه كلما نقص مقتضى من مقتضياتها في عالم الواقع ضمرت بمقدار ما نقص من مقتضياتها في التطبيق، وضمر مفعولها الواقعي في الأرض... حتى إذا جاء يوم عرفت فيه من مقتضياتها، وأصبحت كلمة تقال باللسان فحسب، أو كلمة باللسان و "تصديقاً" بالقلب، وصلت الأمة إلى ما وصلت إليه!

تلك قصة لا إله إلا الله.

فما قصة الأسباب؟! الضعف والتخلف والجمود... إلخ؟! أليست داخلة في الحساب؟! ألم تكن سبباً فيما حلَّ بالأمة في عهدها الأخير؟!

بلى ولا شك! ولكن هل تخرج تلك الأسباب عن مقتضيات لا إله إلا الله [٨]؟!

أليس إعداد القوة من المقتضيات التي ألزم الله بها أمة لا إله إلا الله؟!

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٦٠].

أليس طالب العلم – بكل فروعه – فريضة مفروضة على أمة لا إله إلا الله، سواء منه ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية؟ "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[٩].

أليس السعي في مناكب الأرض بحثاً عن الرزق، وتسخير طاقات السموات والأرض في عمارة الأرض، من المقتضيات التي فرضها الله على أمة لا إله إلا الله؟!

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [سورة الملك، الآية: ١٥]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾

[٨] راجع فصل "مقتضيات لا إله إلا الله في الرسالة المحمدية" في الكتاب المشار إليه.

[٩] أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط والصغير، والبيهقي في الشعب وابن عدي في الكامل وابن عبد البر في العلم.

[سورة الجاثية، الآية: ١٣]، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود، الآية: ٦١].

أليس التوادّ والتحابّ والتآخي بين المسلمين من المقتضيات التي فرضها الله على أمة لا إله إلا الله؟!

(لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً)[١٠].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٠].

أليست إقامة العدل السياسي والاقتصادي والاجتماعي من المقتضيات التي فرضها الله على أمة لا إله إلا الله؟!

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨]، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٥٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨]، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٥].

إن هذه وغيرها كلها "مقتضيات" لا إله إلا الله، واجبة التنفيذ... إنها ليست حلية تعلق ليتحدث الناس عن جمالها، وإنما هي فرائض مفروضة على هذه الأمة لتنال التمكين والاستخلاف والتأمين... وحين نفذتها الأمة - استمساكاً منها بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ - تحقق لها وعد الله يالفعل، ونالت ما يعرفه التاريخ من الاستخلاف والتمكين والتأمين... وكانت قوة مرهوبة في كل الأرض.

ولقائل أن يقول: إذا كان المعول عليه في جميع الحالات هو "اتخاذ الأسباب"، فما الفرق في هذا الشأن بين المؤمنين وغير المؤمنين؟ وما لنا لا نجعل همنا الاجتهاد في اتخاذ الأسباب، ونترك قضية الإيمان جانباً، أو نجعلها "قضية شخصية" كما جعلتها أوربا، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وحسابه على الله في الآخرة؟!

[١٠] أخرجه مسلم.

ويخطئ من يقول ذلك، فضلاً عن أنه لا يقول ذلك مؤمن حق، يؤمن بالله واليوم الآخر... إنما يقوله إنسان تمكن الغزو الفكري من قلبه حتى أخرجه من دائرة الإيمان.

يخطئ في معرفة السنن الربانية التي تحكم حياة الناس في الأرض، ويخطئ في قراءة التاريخ...

نعم، إنه لا يتم شيء في حياة البشر بغير اتخاذ الأسباب، لأن الإنسان لا يقول للشيء كن فيكون، فهذا شأن الله وحده سبحانه. إنما خلق الإنسان ليكدح، وبغير الكدح لا يتم له في الحياة شيء: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [سورة الانشقاق، الآية: ٦]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [سورة البلد، الآية: ٤].

ولكن الكفار يكدحون، فيمكن الله لهم - إن شاء - ويستدرجهم بذلك التمكين فيزدادون إثماً، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر مهما كان بين أيديهم من الأسباب، فيدمر عليهم - طال الأمد أو قصر - ومأواهم جهنم وبئس المصير: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٧٨]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [سورة الحج، الآية: ٤٨].

أما المؤمنون فيكدحون، ويتخذون ما يقدرون عليه من الأسباب فيعينهم الله وينصرهم على أضعافهم من الكفار عدداً وعدَّة، ويمكِّن لهم تمكين الرضا، فيمنحهم بركة في حياتهم في كل مجالاتها، وطمأنينة لا يعرف طعمها الكفار: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ[11] وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٩٦]، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد، الآية: ٢٨].



(١١) كانوا ثلاثة أضعافهم في الحقيقة.

هما إذن سنتان مختلفتان لا سنة واحدة، وإن اتفقت كلتا السنتين في ضرورة اتخاذ الأسباب.

وحين ودعت الأمة السنة الربانية المتعلقة بها، نتيجة تمسكها بالكتاب والسنة وتدبر القرآن بقلب مفتوح، مكَّن الله لها تمكين الرضا، وجعلها مرهوبة الجانب وأفاض عليها من البركات، وملأ حياتها طمأنينة، وجعلها رائدة لكل البشرية تعلمها وترشدها ولو لم تدخل تلك البشرية في دين الله. فقد أقامت أوربا كل إيجابيات "نهضتها" مما تعلمته من المسلمين، على الرغم من أنها رفضت أن تعتنق الإسلام، بل حاربته أشد الحرب[١٢].

ولكن حين أخذت الأمة تتفلت من مقتضيات لا إله إلا الله واحداً إثر الآخر وحين ضعف وعيها بالسنن الربانية نتيجة ضعف تمسكها بكتاب الله، وقلة تدبرها له كان لا بد من النتيجة المحتومة، لأنها سنَّة الله التي لا تتبدل ولا تحابي أحداً من الخلق.

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [سورة فاطر، الآية: ٤٣].

حين أهمل الناس "الدنيا" بتأثير الصوفية أهملوا كذلك "العلم" المتعلق بالحياة الدنيا، من طب، وفلك، ورياضيات، وفيزياء، وكيمياء، فتأخرت الصناعة تبعاً لذلك، وتأخرت كذلك فنون الحرب وأدواته... فمنذ القدم كانت فنون الحرب تعتمد في جانب مهم منها على التقدمين العلمي والصناعي.

وحين كان المسلمون يهملون علومهم وصناعاتهم، ويتأخرون في فنون القتال كانت أوربا - بما تعلمته من علوم المسلمين - تتقدم علميّاً، وصناعيّاً، وتستجد للحرب أدوات جديدة لا يعرفها المسلمون.

وحين كانت أوربا "تتخذ الأسباب" للتمكين في الأرض، كانت الأمة الإسلامية "تتخذ الأسباب" لإهمال الحياة الدنيا والبعد عن التمكين!

وحين تلاقت الفئتان، كانت النتيجة معروفة!

[١٢] سنتحدث في الفصل الثاني عن آثار رفضهم للإسلام وتعصبهم ضده.

بدأت الدول الصليبية تنهش في جسم الدولة العثمانية، وتبتلع من الأرض الإسلامية قطعة وراء قطعة، والأمة مشغولة بـ "الذكر"، لا على المنهج القرآني الذي يذكّر بمقتضيات لا إله إلا الله، فيدفع إلى القوة والتمكين، ولكن على منهج الصوفية الذي يهرب من المواجهة في عالم الشهادة زاعماً أنه يتوغل في عالم الغيب... يتوغل حتى يصل إلى "الفناء"!

وبدأ "الرجل المريض" يترنح من توالي الضربات... هزيمة هنا وفتنة هناك... وما يكاد يقضي على فتنة في أحد الأرجاء، حتى تكون قد برزت فتنة جديدة في مكان جديد... والصليبية الصهيونية تخطط وتُحْكِمُ الكيد، والأمة مشغولة بأضرحتها وأوليائها ومشايخها، تستغيث بهم ليكشفوا عنها الضر، ويصدوا عنها العدو الذي يكتسح في كل يوم جزءاً من الأرض التي رواها الأجداد بالدماء.

وفي النهاية انهار "الرجل المريض"... حين كان مجموع الأمة - إلا من رحم ربك - قد أفرغ لا إله إلا الله من محتواها الحيّ، وتفلّت من مقتضياتها، فاستحالت كلمة تنطق باللسان فحسب، وتقاليد خاوية من الروح...

وتحقق النذير الذي أنذر به رسول الله ﷺ أمته، فتداعت الأمم عليها من كل صوب، ونزع الله مهابة المسلمين من قلوب أعدائهم، فأقبلوا كالذئاب الجائعة المتعطشة للافتراس.

(يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها)، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله مهابتكم من قلوب أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن)، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: (حب الدنيا وكراهية الموت)[١٣].

ولكن المأساة اليوم، في مذبحة البوسنة والهرسك، تبلغ مدى لم تبلغه في التاريخ... لا في بشاعة ما ترتكبه وحوش الصليبية الصهيونية فحسب، بل البشاعة الأكبر هي في ذلك الغثاء الذي لا يتحرك إلا كما يحركه السيل... السيل الآتي من كل الآفاق.

(١٣) أخرجه أحمد وأبو داود.

(٢)
موقف الغرب

عداء اليهود والنصارى والمشركين للإسلام والمسلمين أمر لا يحتاج إلى بيان... فلا بيان أصدق ولا أبلغ من كلام الله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٢٠]، ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٧]، ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠].

وحيثما شعر أحد من هؤلاء الثلاثة - اليهود والنصارى والمشركين - أنه قادر على إيذاء المسلمين، وإلحاق الضرر بهم، لم يتورع عن ذلك إرضاءً للحقد الكامن في نفسه تجاه الأمة التي دانت بلا إله إلا الله، محمد رسول الله. والتاريخ مصداق هذه الحقيقة سواء كيد اليهود للمسلمين في المدينة على عهد رسول الله ﷺ، أو كيد النصارى بمحاولة الإغارة على الدولة الإسلامية في صدر الإسلام، أو هجوم التتار الوثنيين - قبل أن يدخلوا في الإسلام - لإزالة الدولة الإسلامية، أو الحروب الصليبية الأولى، أو إخراج المسلمين من الأندلس وإبادتهم، أو الحروب الصليبية الثانية الدائرة اليوم، أو تقتيل عباد البقر الهندوس للمسلمين منذ القرن الماضي إلى اليوم، أو كيد اليهود لإزالة الدولة العثمانية من أجل اغتصاب فلسطين وطرد أهلها منها وإبادتهم.

سلسلة لم تنقطع منذ أول التاريخ الإسلامي إلى اليوم.

والذي يحدث اليوم في البوسنة والهرسك إن هو إلا امتداد لذات النوازع الشريرة التي تملأ صدر الصليبية الصهيونية تجاه الإسلام... وامتداد لذات الوحشية التي يتعامل بها أعداء الإسلام مع المسلمين كلما ظهروا عليهم.

ولكن هناك عوامل "إضافية" تجعل الوحشية في هذه المرة أشد ضراوة، وتفسر في الوقت ذاته موقف الغرب المخزي من هذه الوحشية التي فاقت كل حدٍّ متصور، والتي يتعفف عنها كثير من الوحوش من سكان الغاب.

فأما بالنسبة للصليبيين الصرب، ولأوربا الصليبية كلها، فقد كان توغل الإسلام في أوربا على يد العثمانيين يمثل في نفوسهم جرحاً غائراً لا يندمل، بدلاً من أن يكون تبشيراً لهم بالخروج من الظلمات إلى النور.

يقول "ولفرد كانتول سميث" – Wilfred Cantwell Smith – في كتابه "الإسلام في التاريخ الحديث" – Islam In Modern History –: (إلى أن قام كارل ماركس وقامت الشيوعية، كان النبي ﷺ[١٤]، هو التحدي الحقيقي الوحيد للحضارة الغربية الذي واجهته في تاريخها كله. وإنه لمن المهم أن نتذكر كم كان هذا التحدي حقيقيّاً، وكم كان يبدو في وقت من الأوقات تهديداً خطيراً حقّاً.

لقد كان الهجوم مباشراً في كلا الميدانين الحربي والعقدي، وكان قويّاً جدّاً... فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة "أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية" لتتسلمها منها القوة الجديدة، وكانت في خطر من ضياع الإمبراطورية بكاملها.

وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع – تماماً – في يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا، فقد استمر الضغط عليها فترة طويلة. وفي موجة التوسع الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣ م، وفي قلب أوربا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفينا سنة ١٥٢٩ م، بينما ظل الزحف الذي بدا عنيداً لا يلين مستمرّاً في طريقه، وحدث ذلك مرة أخرى في عهد قريب لم يتطاول عليه العهد في عام ١٦٨٣ م، وإن وقوع تشيكوسلوفاكيا في قبضة الشيوعية عام ١٩٤٨ م لم يكن له قط في العصر الحديث ذلك الفزع في نفوس الغرب المتهيب، كما كان لذلك الزحف المستمر قرناً بعد قرن، من تلك القوة الضخمة المهدِّدة، التي لا تكف ولا تهدأ، ويتكرر انتصارها مرة بعد مرة.

وكما هو الأمر مع الشيوعية[١٥]، كذلك كان التهديد والانتصارات "الإسلامية" قائمين في عالم القيم والأفكار أيضاً، فقد كان الهجوم الإسلامي موجهاً إلى عالم النظريات كما هو موجه إلى عالم الواقع. وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسي للعقيدة المسيحية[١٦]، التي كانت بالنسبة لأوربا العقيدة السامية التي أخذت – في بطء – تبني حولها حضارتها، وكان التهديد الإسلامي موجهاً بقوة وعنف وكان ناجحاً مكتسحاً في نصف

---

[١٤] يقصد الإسلام، ولكن انظر كم يتوجه الكاتب بحقده الباطني نحو شخص الرسول ﷺ فيفضحه التعبير!

[١٥] كتب سميث كتابه عام ١٩٥٩ م وكانت الشيوعية يومئذ في أوجها، تمثل تهديداً شديداً لأوربا.

[١٦] عقيدة التثليث وألوهية عيسى وبنوته لله.

العالم المسيحي تقريباً، والإسلام هو القوة الوحيدة التي انتزعت من المسيحيين أناساً دخلوا في الدين الجديد وآمنوا به... بعشرات الملايين)[١٧].

لقد تعلمت أوربا كثيراً من علوم المسلمين وحضارتهم، بشهادة المنصفين من كتابهم.

يقول "بريفولت" في كتاب "بناء الإنسانية" – Making of Humanity – بعد أن تكلم عن استفادة أوربا من علوم المسلمين، ومن المنهج التجريبي في البحث العلمي بصفة خاصة: (ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد أوربا إلى الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية)[١٨].

ولكنها مع ذلك رفضت – غالبيتها – الدخول في الإسلام[١٩]، وقد كان لهذا الأمر الخطير آثاره الخطيرة في حياة أوربا وحياة العالم كله من بعد.

لقد خسرت أوربا ذاتها خسارة بالغة بتفويتها تلك الفرصة، وعدم الدخول في الإسلام.

فقد رفضت بادئ ذي بدء تنقية عقيدتها مما أدخله فيها بولس وغيره من خرافة التثليث، وتأليه عيسى عليه السلام، وادعاء بنوته لله.

وأقامت "حضارة" عرجاء، متضخمة ماديّاً – بالعكوف على التقدمين العلمي والمادي – فقيرة روحيّاً برفضها الدخول في الدين الصحيح، ونفورها المتزايد في الوقت ذاته من دين الكنيسة الذي تستخدمه في استعباد البشر والاستبداد بأرواحهم وأفكارهم وكل مقدراتهم، فأصبحت تلك "الحضارة" مادة بلا روح.

---

[١٧] ولفرد كانتول سميث، الإسلام في العالم الحديث، الطبعة السادسة ص ١٠٩ – ١١٠ من الأصل الإنجليزي (طبعة مؤسسة منتور، نيويورك، أمريكا).

[١٨] عن كتاب" تجديد الفكر الديني " تأليف محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، ص ١٤٩.

[١٩] كانت أوربا مهيأة للدخول في الإسلام في أوائل القرن السادس عشر، كما يقول المؤرخ البريطاني " ويلز " في كتابه " معالم تاريخ الإنسانية " ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، طبع القاهرة ج ٣ ص ٩٦٦، ولكن الكنيسة بذلت جهداً ضخماً لصدها عن الإسلام.

ولكن لعل من أشد ما خسرته أوربا برفضها الإسلام أنها لم تستطع أن تنقّي ضميرها مما بذرته فيه الحضارة الرومانية من إسفاف في عالم القيم والمثل الإنسانية الرفيعة...

لقد كان مكيافيللي "رائداً" لعصر "النهضة" معبراً عن روحها الحقيقية "الغاية تبرر الوسيلة"، "القوة هي الحق" – Might is Right –

ولم ينشأ ميكافيللي من فراغ... لقد برز من أعماق الضمير الأوربي... ضمير فاسد لا يعير اهتماماً "للقيم" في سبيل الحصول على مصلحته المادية. القوة في نظره هي الأداة المطلوبة، ولكن لا لحماية الحق وصيانته، بل للعدوان على الآخرين وإذلالهم واستعبادهم لمصالحه.

فإذا أضيف لهذه الروح – التي تقوّت وتسلحت بالتقدمين العلمي والتكنولوجي – حقد الصليبية الذي لم تشف منه أوربا قط فنستطيع أن نفهم جيداً روح الحرب الصليبية الثانية التي بدأت منذ سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ م، وطرد المسلمين من الأندلس، ثم ملاحقتهم خارج الأندلس بأمر من البابا، وبدء الاستعمار الصليبي في العالم الإسلامي.

لقد كان الاستعمار الصليبي للعالم الإسلامي خلاصة سخائم أوربا كلها ونذالاتها: الحقد الصليبي... الاستعلاء بالقوة... الرغبة في إذلال الآخرين واستعبادهم... غلبة الروح المادية... الإسفاف في عالم القيم والمثل الإنسانية الرفيعة... وكان الحقد الصليبي هو "الرائد" الذي يجر وراءه بقية السخائم والنذالات.

وبالنسبة للبلقان الذي تقع فيه الصرب، والبوسنة والهرسك، فقد بدأت المذابح للمسلمين منذ ما يسمى عندهم "حرب التحرير"... ولم تقتصر المذابح على الجنود العثمانيين الموجودين في البلقان، بل شملت كذلك الأهالي المسلمين من أهل البلقان أنفسهم، الذين لا يمكن بحال من الأحوال أن يطلق عليهم لفظ "محتلين" أو "مستعمرين" أو "غرباء" أو "دخلاء" فهم من أهل البلاد الذين "آمنوا" بالإسلام بغير قهر كما يشهد ولفرد كانتول سميث في النص الذي نقلناه عنه، وكما يشهد وجود الأغلبية النصرانية في البلاد حتى اليوم، فإنه لو كان هناك قهر أو اضطهاد ما بقيت هذه الأغلبية حتى اليوم!

بدأت المذابح، ولم تتوقف حتى اللحظة، وما المذبحة الحالية إلا إحدى تلك المذابح التي تتمثل فيها قذارات الصليبية الأوربية وسخائمها... ولكن

فيها كما أشرنا من قبل "إضافة" جعلتها أكثر خسة وأكثر ضراوة وأكثر وحشية...

لقد كان نصارى البلقان ويهوده[٢٠] يذبحون المسلمين لمجرد كونهم مسلمين ولا شيء آخر... أما اليوم، بعد أن تفككت يوغوسلافيا، فقد بلغ "التبجح" بأولئك المسلمين أن يمارسوا حقهم الإنساني - المعترف به لكل البشر في الأرض - في أن يكوّنوا - كبقية الشعوب التي تفككت إليها يوغوسلافيا - دولة مستقلة تجمعهم تحت ظلها!

يا للجريمة!

إلى هذا الحد يصل التبجح بهؤلاء المسلمين؟! دولة إسلامية؟! وأين؟! في أوربا الصليبية؟!

إنها جريمة ليس لها عقاب يناسبها أقل من الإبادة الكاملة الشاملة، التي تشمل الرجال والنساء والأطفال والشباب والشيوخ، والتدمير الكامل للمباني، والحصار الشامل للمدن، والتعذيب والتشويه والتجويع لمن لم يقتل بعد، والتمثيل بالجثث بعد القتل... وفوق ذلك اغتصاب النساء... بعشرات الألوف.



تلك قصة الصرب...

أما موقف الغرب فهو كذلك على خطه الأصلي مع بعض "إضافات".

الخط الأصلي هو العداء الصليبي الصهيوني للإسلام والمسلمين، تمثل من قبل في جرائم الاستعمار وبشاعاته في كل أرض إسلامية دنستها أقدام المستعمرين... في الهند على يد الإنجليز الذين أبادوا مئات الألوف من المسلمين في مذابح جماعية، وفي الشمال الإفريقي على يد فرنسا في الجزائر خاصة - بلد المليون شهيد - وفي ليبيا على يد الطليان وفي أندونيسيا على يد الهولنديين، وفي فلسطين على يد اليهود... وفي كل مكان استطاعوا أن يصلوا إليه بالحديد والنار.

[٢٠] كان تيتو حاكم يوغوسلافيا السابق يهوديّاً كما أسلفنا.

أما "الإضافات" فهي الواقع المعاصر في كل بلاد العالم الإسلامي...

لقد كانت الصليبية الصهيونية قد ظنت - بعد "جهاد" قرنين كاملين من الزمان استخدمت فيه كل وسائل الحرب وكل وسائل الكيد بما فيها الغزو الفكري - أنها قد تخلصت من الإسلام إلى الأبد، فلم تعد تقوم له قائمة في الأرض...

وكان من حقها أن تظن ذلك...

كانت أحوال العالم الإسلامي الداخلية من السوء بحيث تغري بالظن أنه لن يقوم من وهدته أبداً: الجهل والخرافة... الضعف والتخلف... التفكك والضياع... وعشرات من الأمراض المتوغلة في كيان الأمة في كل مرفق من مرافقها، ناشئة كلها - كما بينا في كتاب "واقعنا المعاصر" وغيره من الكتب[٢١] - من تفريغ لا إله إلا الله من محتواها الحيّ، والتفلت من مقتضياتها، وتحولها إلى كلمة تنطق باللسان فحسب، وتقاليد خاوية من الروح.

وكان التخطيط الصليبي الصهيوني من جانب آخر من الدقة والإحكام والقوة في التنفيذ بحيث يغري بذلك الظن... ففي خلال قرنين من الزمان، تمكنت الصليبية الصهيونية من تحطيم القوتين العسكرية والسياسية للدولة الإسلامية، واحتلال كل الأرض الإسلامية فيما عدا تركيا وأجزاء من الجزيرة العربية، والأخطر من ذلك كله أنها تمكنت من اقتلاع جذور الإسلام من قلوب كثير من المسلمين عن طريق الغزو الفكري، وتخريج أجيال تحمل أسماء مسلمة، ولكن قلوبها غفل من الإسلام... لا تكاد تعرفه، أو تمارس شيئاً من مقتضياته، وكل ما تعرفه عنه هو الشبهات التي زرعها المنصرون والمستشرقون في قلوب الناس، سواء عن طريق مناهج التعليم أو وسائل الإعلام. ولذلك فإنه حين ظنت الصليبية الصهيونية أنها قضت على الإسلام بغير رجعة، فقد كان لديها ما يؤيد هذا الظن، بل يكاد يصل عندهم إلى درجة اليقين.

صحيح أنه قامت حركات "تحررية " و "ثورات" ضد الاستعمار.

وفي وقت مبكر من هذا القرن - العشرين الميلادي - شعرت الدول الاستعمارية بشيء من القلق، فعهدت إلى بريطانيا - زعيمة الصليبية

---

[٢١] اقرأ إن شئت "مفاهيم ينبغي أن تصحح" و "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر".

الصهيونية يومئذ - بدارسة الأمر واقتراح الحل، فعهدت هذه بدورها إلى واحد من رجالها أن يدرس الأمر، وهو "اللورد بترمان"، الذي كتب تقريره الشهير عام ١٩٠٧ م، والذي قال فيه: (هناك شعب واحد يسكن من المحيط إلى الخليج - بقصد المنطقة العربية من العالم الإسلامي - لغته واحدة، وأرضه متصلة، ودينه واحد، وماضيه مشترك، وآماله مشتركة، وهو الآن في قبضة أيدينا، ولكنه أخذ يتململ، فماذا يحدث لنا غداً إذا استيقظ العملاق؟!).

ثم قدم الحل المقترح: (يجب علينا أن نقطع اتصال هذا الشعب، بإيجاد دولة دخيلة تكون صديقة لنا وعدوة لأهل المنطقة، وتكون بمثابة الشوكة، تخز العملاق كلما أراد أن ينهض!)[٢٢].

وبدأت بالفعل الخطوات الحثيثة للتحضير لإنشاء الدولة الدخيلة التي أشار إليها التقرير... والتي أعلنت رسميّاً عام ١٩٤٨ م!

ولكن الصليبية الصهيونية لم تكتلف بذلك، بل عمدت إلى أمر لا يقل خطراً، وهو تشتيت عقل الثورات والحركات التحررية، التي قامت كلها من منطلق إسلامي بإلباسها أثواباً من الغزو الفكري، تقلم أظافرها، وتحدّ من أخطارها، فتحولت إلى حركات "وطنية" أو "قومية" أو - في فترة من الوقت - "اشتراكية" تتعايش كلها مع مصالح الصليبية والصهيونية، وتبعد عنها خطر الإسلام!

ولكن المفاجأة الكبرى للصليبية الصهيونية، وللعالم أجمع، على الرغم من هذا الكيد كله، كانت هي "الصحوة الإسلامية"!

لم يكن أحد يصدق - ولا "المسلمون" أنفسهم - أنه يمكن للصحوة أن تولد فضلاً عن أن تعيش!

وتحركت أحقاد العدو الأبدي - اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون[٢٣] - وحاولوا بكل الوسائل المتاحة لهم أن يئدوا الوليد قبل أن يشب، فإذا هو يستعصي على الوأد وإذا به يمتد في الأرض، وإذا شأنه وخطره يتضاعفان يوماً بعد يوم...

[٢٢] راجع نص التقرير كاملاً مترجماً إلى العربية من منشورات الجامعة العربية بالقاهرة.
[٢٣] يرد ذكر هؤلاء الأعداء الأربعة مجتمعاً ومتفرقاً في كثير من السور المدنية، والسور الطوال خاصة.

عندئذ فقد العدو عقله، وفقد كذلك حياءه.

وأصبحت الحرب "على المكشوف"!

وجاءت مذبحة البوسنة والهرسك والغرب على ذلك... فوقف موقفه المكشوف العاري من كل ستار...



ليس الأمر جديداً...

إسرائيل التي أوجدتها الصليبية الصهيونية لتكون بمثابة الشوكة، تخز العملاق كلما أراد أن ينهض - تقتل الفلسطينيين أصحاب الأرض، وتنهب أرضهم، وتسجن وتشرّد وتعذّب، وأمريكا تقف بالمرصاد في مجلس الأمن، تستعمل حق "الفيتو" لتمنع مجرد الإدانة الشفوية التي لا تقدم ولا تؤخر في واقع الحال... أما إذا قام الشعب الفلسطيني يدافع عن نفسه - بالحجارة - فالدنيا كلها تتآمر للقضاء على الانتفاضة التي "تعكر صفو السلام"!

وإسرائيل تصنّع الأسلحة النووية، والكيميائية، والبيولوجية، وأمريكا تمدها بمزيد من السلاح، ومزيد من الخبرة التكنولوجية، وتفتح لها خزائن أموالها، وخزائن أسرارها، ثم تمنع العرب - علانية - من تملك وسائل الدفاع عن أنفسهم ضد العدوان الإسرائيلي المستمر!

الهند تصنّع الأسلحة النووية، وترفض التوقيع على معاهدة الحد من التجارب النووية، ولا أحد يلومها، أو يقاطعها، أو حتى يهدد بمقاطعتها، وباكستان تتلقى التهديدات من أمريكا إذا لم تكفّ عن محاولة الوصول إلى أدنى درجات السلاح النووي لتستطيع على الأقل حماية نفسها من التهديد الهندي!

وفي الهند تقوم الدولة بتعقيم إجباري للرجال المسلمين للحد من زيادة عددهم ويقوم الهندوس، بمهاجمة القرى الإسلامية وتحريقها على أهلها أحياء، وتجيء الشرطة فتطلق النار على الفارين من القرى المحترقة بتهمة إحداث الشغب!

ويتكرر هذا الأمر مرات ومرات ومرات والإعلام العالمي يمارس مؤامرة الصمت القاتل، ولا تتدخل "لجان حقوق الإنسان"، ولا يرتفع صوت واحد في هيئة الأمم، ولا مجلس الأمن يستنكر هذه البربرية الوحشية، بينما يتلقى السودان شحنة من الغضب الأمريكي الهادر، وتتحرك لجان حقوق الإنسان، لأن سودانيّاً نصرانيا اتهم بالتجسس لحساب أعداء الإسلام وحوكم، وأدانته المحكمة، فحكم عليه بالإعدام! يا للبربرية! أيعدم الجاسوس؟!

وفي غيرها... وفي غيرها... وفي غيرها... دائماً يحدث الكيل بمكيالين... وعلى المكشوف!

ومع ذلك كله فموقف الغرب من مذبحة البوسنة والهرسك أسوأ بكثير من كل مواقفه السابقة المنحازة ضد المسلمين. المذبحة أبشع... والتخاذل الخسيس أخس!

لا يمر يوم واحد دون أن يذبح رجال أو نساء أو أطفال أو تغتصب نساء... والإعلام المنحاز ذاته لا يملك أن يسكت، لشناعة ما يحدث، وتجاوزه كل حد... ومع ذلك لا يتحرك أحد في الغرب!

كلا! بل يتحركون!

يتحركون لمنع وصول السلاح للبوسنويين ليدافعوا عن أنفسهم!

ما معنى هذا؟

معناه باللغة الصريحة: استمروا أيها الصرب... استمروا في القتل والذبح والتعذيب والتشريد والتدمير، ونحن واقفون بالمرصاد لنمنع أي عائق يعوقكم عن الاستمرار فيما أنتم فيه! سنسكت أي صوت يرتفع في هيئة الأمم أو مجلس الأمن يطالب بتسليح البوسنويين! سنضغط على أي جهة تحاول أن تمدهم - خفية - بسلاح يمنعكم من إبادتهم... اطمئنوا... افعلوا كل ما في وسعكم... لا تخشوا التدخل من أحد! إننا نبارك خطواتكم!

وحين نرى أنكم بلغتم أهدافكم وحققتم ما يشفي حقدنا وحقدكم، فقد نتدخل في النهاية... في تباطؤ وتخاذل ظاهرين، لنقول لكم على رءوس

الأشهاد كفى ما فعلتم! ولنقول لكم في السر: هنيئاً لكم بما فعلتم! ثم نطلب مكافأتكم بـ "حل سلمي" يبقي لكم على "مكاسبكم"!



كل هذا – على بشاعته – ليس هو كل ما أردت إبرازه في هذا الدرس!

موقف الغرب مفهوم عندي... من قديم!

إنما أردت في هذا الدرس أن أشير إلى مواقف عبَّاد الغرب... ممن يحملون أسماء إسلامية، وقلوبهم من الداخل موبوءة بآثار الغزو الفكري، لا تفكر إلا بما يفكر لها الغرب، ولا ترى الصورة إلا كما يعرضها الغرب...

ما موقفهم اليوم بعدما انكشف الغرب هذا الانكشاف المخزي، الذي يمثل وصمة عار في جبين البشرية كلها، التي تحمل في أطوائها مثل هؤلاء الوحوش، ثم تسكت عليهم هذا السكوت؟

هل سيظلون يتكلمون عن عظمة الغرب وتقدمه وتحضره ونبله ورفعته، ويظلون يستنكرون من يتحدث عن مؤامرة الغرب ضد الإسلام، ويقولون إن المؤامرة وهم لا وجود له في الحقيقة؟

يحكى أن رجلاً ذهب إلى طبيب العيون ليفحص له قوة إبصاره، فأجلسه الطبيب قبالة العلامات التي يفحص بها قوة الإبصار، وأشار إلى علامة معينة منها وسأل الرجل: هذه العلامة... أهي إلى اليمين أم إلى اليسار؟ فقال الرجل ببساطة: أين هي العلامات؟! فقال له الطبيب في دهشة: ألا تراها؟ هذه هي الموجودة على الجدار؟ فقال الرجل: وهل يوجد جدار أيضاً؟!

فما موقف عبَّاد الغرب اليوم؟ هل بدت لهم "العلامات"؟! أم إن الجدار ذاته لم يتضح لهم بعد!

يتحدثون عن الديمقراطية في الغرب، وكيف رفعت قيمة الإنسان وكرمته ومنحته كيانه الإنساني وحقوقه المشروعة.

وبدون جدل كثير[٢٤] سنقول لهم؛ نعم! إن الديمقراطية - عندهم - قد أعطت "الشعب" حق الوجود، ومنحته حقوقاً وضمانات لم يكن يتمتع بها من قبل، وجعلت "للفرد" كياناً لا يملك أحد أن يعتدي عليه...

وبصرف النظر عن كون هذه الحقوق والضمانات قد نالها الشعب بالدماء والدموع وأنها لم تصبح عرفاً راسخاً حتى علم من أراد أن يعتدي أن "الآخر" لن يسكت له ولن يمكّنه من العدوان عليه... بصرف النظر عن هذا، فإنها - في النهاية - ديمقراطية "الرجل الأبيض"، سليل ذلك الروماني القديم الذي يعتبر نفسه هو وحده "الحر" وبقية الشعوب عبيد، مهمتهم أن يخدموا مصالح السيد، وييسروا له المتاع!

وإذا سلمنا جدلاً أنها لكل الناس - في الغرب -[٢٥] فهي على وجه التأكيد ليست للمسلمين! وقضية الجزائر ما زالت ماثلة في الأذهان، فحين اتخذ المسلمون هناك نفس السبيل الذي يسلكه الغرب[٢٦]، وفازوا - في انتخابات حرة - بالأغلبية التي تعطيهم حق الوصول إلى السلطة، قام الغرب كله يطلق صفارة الخطر، وهددت فرنسا علانية بأنه إذا قامت حكومة إسلامية في الجزائر فإن الجيش الفرنسي سينزل إلى الجزائر!

ليس مقياس الحضارة والرقي النفسي أن تحترم أخاك الذي تعلم أنه في نفس وضعك، وأنه يملك عليك من الحقوق ما تملك أنت عليه... إنما المقياس الحقيقي أن تعطي هذا الحق لكل الناس سواء كانوا في وضعك أو كانوا دونك.

تحدث رسول الله ﷺ إلى صحابته يحضهم على الرحمة، فقالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم! فقال عليه الصلاة والسلام: (ليس برحمة أحدكم صاحبه إنما برحمة سائر الناس)[٢٧].

[٢٤] تحدثت عن سلبيات الديمقراطية وإيجابياتها وموقف الإسلام منها في فصل "الديمقراطية" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

[٢٥] يكذّب ذلك قضية الملونين في أمريكا وتأييد بريطانيا للحكومة العنصرية التي تضطهد الملونين في جنوب أفريقيا.

[٢٦] قلنا من قبل مراراً إن لعبة الديمقراطية تمثل طريقاً مسدوداً بالنسبة للإسلاميين، فضلاً عما فيها من مزالق عقدية، انظر إن شئت فصل "الصحوة الإسلامية" من كتاب "واقعنا المعاصر".

[٢٧] أخرجه الطبراني وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

هذا هو المعيار الحضاري الحق، الذي يؤكد إنسانية الإنسان... وليست ديمقراطية "الرجل الأبيض" المحرمة على الآخرين، وعلى المسلمين خاصة من بين كل "الآخرين".

ونعود إلى عبَّاد الغرب... ما موقفهم اليوم؟ وما عساهم سيقولون؟

منذ سنوات - أيام حرب فيتنام - أصدر رجل أمريكي، ممن ساءته سمعة أمريكا في الخارج، كتاباً سماه "الأمريكي القبيح الوجه" - The Ugly American - يندد فيه بالسلوكيات الخاطئة التي رآها في نظره مشينة لأمريكا.

هل نطمع - بعد مذابح البوسنة والهرسك - أن نجد رجلاً أوربيّاً شجاعاً يخرج كتاباً عن الصليبية الأوربية ووجهها القبيح، الذي ظهر أقبح ما يكون في قضية البوسنة والهرسك؟

وهل نطمع أن يكون هناك رجل شجاع آخر يكتب عن الوجه الكالح للغرب، من بين الذين كانوا منا مخدوعين بالغرب، وتقدمه وحضارته، ونبله ورفعته، بعد أن يكون الله قد فتح بصيرته، فرأى "العلامات" الواضحة فوق الجدار؟!



(٣)
طريق الخلاص

لا طريق لهذه الأمة للخروج مما هي فيه من الهوان والذل، وتكالب الأعداء عليها من كل صوب، إلا العودة إلى الإسلام... العودة إلى حقيقة لا إله إلا الله...

إن تاريخ هذه الأمة - كما بينا في الدرس الأول - كان مرتبطاً دائماً بمدى تمسكها بلا إله إلا الله، والعمل بمقتضياتها، ذلك أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله، هي الجذور التي تثبت هذه الأمة في الأرض، وتمنحها الحياة والقوة والتمكين: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤ - ٢٥].

ولسنا نقول فقط إنها "الجذور التاريخية" لهذه الأمة، وإن كانت هي كذلك بكل تأكيد، فما من شيء ولا فكرة ولا مبدإ لازم أمة في التاريخ كله بمقدار ما لازمت "لا إله إلا الله" تاريخ الأمة الإسلامية... أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، ولكنها ليست فقط جذوراً تاريخية بالمعنى المتعارف عليه، لأن "لا إله إلا الله" ليست تاريخاً ماضياً... ليست "تراثاً"... إنما هي قوة فاعلة، حاضرة أبداً في كل لحظة تؤخذ فيها على حقيقتها ويعمل الناس بمقتضاها. قوة تشكل الحاضر، وتشكل المستقبل المنظور كذلك.

لقد عاب الله على بني إسرائيل أنهم اتخذوا كتابهم "تراثاً": ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٦٩].

ورثوا الكتاب: يعني اعتبروه كتاب آبائهم وأجدادهم ورثوه عنهم... وليس كتابهم هم الذي يلتزمون بما جاء فيه كما كان يلتزم الآباء والأجداد... ولقد سماهم الله "خَلْفاً" - والخَلْفُ في اللغة هو الخَلَف السيئ - ووصفهم بأنهم نسوا تعاليم الكتاب وحرصوا على عرض الحياة الدنيا. ومع معرفتهم بأن هذا الحرص يؤدي بهم إلى مخالفة ما أنزل الله إليهم في الكتاب، وأن هذه

خطايا يرتكبونها في حياتهم الدنيا، فإنهم يقولون: سيغفر لنا! وما دامت الجنة مضمونة لهم بمقتضى مغفرة الله لهم فلا عليهم أن يقعوا في الخطايا والآثام!

ترى هل يختلف وضع الأمة الإسلامية كثيراً في عهدها الأخير عن هذا الخلْف الموصوف في كتاب الله؟!

ألم يتخذوا كتابهم "تراثاً"؟! ألم يتفلتوا من تكاليفه؟! ألم يعملوا بغير مقتضاه؟! ثم إذا ذكّروا قالوا: أمة محمد بخير! ربك غفور رحيم! أو قالوا: إن ربك رب قلوب، وما دام قلبك عامراً بالإيمان فلا يهمك شيء!

بل ألم يقل فريق منهم صراحة إن الكتاب أنزل للآباء والأجداد ليعملوا به في زمانهم، أما هم فليسوا ملزمين بما جاء فيه، لأنهم - بمقتضى "التطور" - قد صارت لهم رؤية مختلفة، ومنهج مختلف؟!

ألم يقل فريق منهم إنه رجعية وتأخر، وبداوة وهمجية، ومنهج قاصر عن اللحاق بركب البشرية الظافر المنتصر؟!

ثم إذا ذكروا بأنهم بذلك يخرجون من دائرة الدين - وهم يعلمون ذلك في دخيلة أنفسهم - قالوا متبجحين: بل نحن مسلمون مؤمنون بالله! أو كلما خالفكم مخالف أخرجتموه من الدين؟!

هل يختلف الأمر كثيراً عن ذلك "الخلْف" السيئ من بني إسرائيل؟!



لم يكن ما وقع للأمة الإسلامية غريباً عن السنن الربانية التي بينها الله للمسلمين في الكتاب. ولكنّ وقع الأحداث كان غريباً على نفوسهم، لأن تلك النفوس فقدت وعيها بتلك السنن، حين ضعف استمساكها بالكتاب وتدبرها لمعانيه.

لما هزم المسلمون في أحد تعجبوا للهزيمة فقال الله لهم: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٥، ١٦٦].

فهو قدر... نعم. ولكنه "من عند أنفسكم" بسبب مخالفتكم لأمر الله ورسوله ﷺ، وقد وعى المسلمون الدرس يومئذ، فلم يعودوا يخالفون أمر رسول الله ﷺ، أما حين تفلتوا ونسوا وانحرفوا، فقد لحقتهم السنة التي لا تجامل ولا تحابي، واحتل الأعداء بلادهم...

وحين أذهلهم وقع أقدام العدو في بلادهم، قام فريق منهم ينادون بضرورة "الإصلاح"، وسُمُّوا في التاريخ "مصلحين"! فنادوا بضرورة نبذ المنهج الديني - أو في القليل حصره في دائرة الاعتقاد والشعائر - واتخاذ المنهج الغربي في الفكر والحياة والسلوك، من أجل التقدم والتحضر والحصول على القوة وإزالة آثار التخلف...!

ومر على ذلك قرنان من الزمان، عمل العاملون فيهما على اتخاذ كل مظهر من مظاهر الحياة الغربية ليصلوا إلى الأمل المنشود... فماذا كانت الحصيلة النهائية لجهد القرنين من الزمان؟!

اليهود في فلسطين.

الصرب في البوسنة والهرسك.

الهنود في الهند وكشمير.

وغيرهم... وغيرهم. في كل مكان...

والعالم الإسلامي غارق في الديون إلى أذنيه، غارق في التخلف العلمي والصناعي والتكنولوجي، غارق في الفقر، غارق في التبعية... وفوق ذلك كله، غارق في الفساد الخلقي.

وحقيقة، تمت "إصلاحات"!

هناك مدارس وجامعات... هناك طرق ومواصلات... هناك إذاعات وتليفزيونات... هناك أموال واستثمارات. هناك مبان وعمارات... هناك بضائع من كل الأنواع... وهناك "متعلمون" و "متعلمات".

ولكن العدو الصليبي الصهيوني لا يهتم لذلك كله، ولا يخشاه! لأنه يعتقد أن مفاتيح ذلك كله في بلده... إذا شاء فتح وإذا شاء أغلق! وهو يغلق

أكثر مما يفتح... أو بالتحديد يغلق ما يؤدي إلى القوة ويفتح ما يؤدي إلى الضعف!

لذلك فإنه لا يحصي: كم مدفعاً عند المسلمين؟ لأنه هو الذي يبيع المدافع لهم! فإذا زاد العدد أوقفه!.

ولا يحصي: كم مدرسة عندهم وكم جامعة؟ لأنه هو الذي يشكل - بالغزو الفكري - عقول المتعلمين فيها والمعلمين!

ولا يحصي: كم سيارة عندهم؟ لأنه هو الذي يصدّر إليهم السيارات، ويهمه أن يزداد عددها ليربح منها أكبر الربح، ويستهلك فيها من أموالهم أكبر قدر! فلا ينزعج من زيادتها بل يسرّ!

ولكنه يحصي - بدقة بالغة، وحنق لا يوصف - كم جماعة إسلامية قائمة، وكم أتباعها؟ وكم شاباً التزم، وكم فتاة تحجبت... لأنه يعلم أن هذا - قبل كل شيء - هو مصدر القوة الحقيقي، الذي يعمل له الحساب!

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٦].



المطلوب من الأمة الإسلامية أن تعرف - إلى درجة اليقين - هذه الحقيقة التي يعرفها الغرب إلى درجة اليقين: أن منبع القوة الحقيقية هو الإيمان الصادق بلا إله إلا الله والعمل الصادق بمقتضيات لا إله إلا الله... عندئذ تصبح المدافع والدبابات والطائرات، والمدارس، والجامعات، والطرق، والمواصلات، والأموال والاستثمارات أداة قوة حقيقية، لا أداة زينة، ولا أداة فساد.

ذكرت في كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح" تلك القصة التي رواها لنا حاكم قطاع غزة لعام ١٩٦٧ م، حين وقع في أسر اليهود لأن سيارته دخلت خطأً في الأرض المغتصبة، فأخذ الضابط اليهودي يستجوبه، فكان أول ما سأله عنه: أما يزال هناك في الجيش المصري ضباط من الإخوان المسلمين؟! قال له: لا! لا يوجد ولكن لماذا تسأل؟ قال: إننا لا نستطيع أن ننسى ما حدث

عام ١٩٥٦ حين أوقف اثنان من الضباط الإخوان المسلمين الزحف اليهودي ست ساعات كاملة أمام ممر مِتْلا[٢٨] حتى ماتا على مدفعيهما!

وقلت هناك تعليقاً على القصة: إن اليهود لا يخشون المدفع في ذاته، فعندهم - دائماً - ما هو أقوى منه! ولكنهم يخافون الرجل الواقف وراء المدفع، حين يكون قلبه متعلقاً بلا إله إلا الله!



إن العودة الصادقة للا إله إلا الله هي المخرج لهذه الأمة من كل ما هي فيه... وهي التي يحذرها العدو الصليبي الصهيوني ويحاول أن يحول دونها بكل سبيل...

وليس معنى ذلك كما قلنا أكثر من مرة أن نهمل المدارس والجامعات، والطرق والمواصلات، ووسائل التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية و "الحضارية"... لنصحح للناس عقائدهم! فهذا تصور لا يقول به عاقل! ولم يقل الرسول ﷺ لصحابته الكرام رضوان الله عليهم وهو يربيهم: اتركوا معاشكم لا تسعوا في طلبه، واتركوا أطفالكم ونساءكم وأنفسكم جياعاً لا تأكلون، ولا تتعلموا صنعة، ولا تقوموا بعمل حتى أصحح لكم عقيدتكم، وأربيكم على الإيمان الصحيح! إنما كان يعلمهم ويربيهم وهم يقومون بنشاطهم الطبيعي كله، لأن أحد الأمرين لا يتوقف حتى يتم الآخر! ولا أحد الأمرين هو بديل من الآخر!

هذه الحقيقة تحتاج الأمة إلى أن تتيقنها، لا أن تعرفها فحسب، فالمعرفة تتم في الذهن، ولكنها قد تبقى هناك ساكنة لا تتحرك، ولا تحرك الإنسان الذي عرفها... كطبيعة "الفلسفة" في التاريخ كله، وكطبيعة كل معرفة ذهنية، كالمعارف التي تصب في أذهان الطلاب في المدارس والجامعات!

أما "اليقين" فإنه لا يقبع في الذهن كـ "المعرفة"... إنما ينتقل من الذهن إلى القلب فيتعمق فيه، فيصبح وجداناً يخفق به القلب، ثم يتحول إلى سلوك واقعي... وهذا الذي كان يفعله رسول الله ﷺ وهو يربي أصحابه رضوان الله عليهم...

---

[٢٨] ممر في شبه جزيرة سيناء يقع بين جبال وعرة ولا بد للجيوش أن تمر منه.

وهذا الذي تحتاج الأمة إليه.

إن "معارف" الإسلام معروفة... وإن كان بعضها في غربة الإسلام الحالية[٢٩] قد أصبح غريباً على الأذهان، من شدة تأثير الغزو الفكري وثقل "الأمر الواقع"، الذي فرضته الجاهلية المعاصرة على المسلمين... كقضية تحكيم الشريعة، وقضية تحرير المرأة! وقضية الاقتصاد الربوي، وقضايا التبعية الثقافية والتبعية السياسية للغرب، وقضية الجهاد، وقضية "المحافل الدولية"، وقضية العالم الذي أصبح كالقرية الواحدة!... إلخ.

ولا بأس أن يكتب الكتَّاب الإسلاميون في هذه القضايا كلها لبيان الحقيقة الإسلامية فيها، وإزالة الغبش الذي غشاها في أذهان الأجيال التي تربت على الغزو الفكري ونشأت في عالم لا يحكم الإسلام واقعه... وذلك من أجل إحداث "المعرفة" اللازمة بحقائق الإسلام.

ولكن المعرفة وحدها - كما أسلفنا - لا تكفي...

لا بد أن تتحول المعرفة إلى يقين.

لا بد من تربية الأمة على الإسلام.

وهذه هي المشكلة الحقيقية التي تواجه الدعوة.

إن الأمر أضخم بكثير مما يتصوره كثير من الناس، والجهد المطلوب له أضخم بكثير مما يتصوره كثير من الناس.

إنه لن يكفي لحل المشكلة بضع رصاصات تنطلق هنا أو هناك، أو بضعة "نواب" من الإسلاميين يشاركون في المجالس التشريعية التي تشرّع بغير ما أنزل الله!

ذلك أن المشكلة ليست مجرد إصلاح جانب فاسد من الحياة الإسلامية أو بضعة جوانب محدودة، فتصلحها رصاصة غاضبة، أو تصلحها صيحة غاضبة في مجلس من مجالس التشريع.

---

(٢٩) يقول عليه الصلاة والسلام: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء) أخرجه مسلم.

إنها مشكلة إعادة بناء أمة... وذلك أمر يحتاج إلى جهد، ويحتاج إلى صبر، ويحتاج إلى تجرد، ويحتاج إلى نفس طويل. وإنا لنعلم في الوقت ذاته أنه لا يمكن تربية أمة من الأمم دفعة واحدة، ولا يمكن تربية كل فرد من أفراد أي أمة... ورسول الله ﷺ - أعظم قائد في التاريخ، وأعظم مربٍّ في التاريخ - لم يربِّ أمته دفعة واحدة، ولم يربِّ كل فرد من أفراد أمته... وقد كان في أمته ضعاف الإيمان والمثبطون، والمعوقون، والمبطّئون، والمتّاقلون، وغيرهم ممن ورد ذكرهم وأوصافهم في السور المدنية من كتاب الله...

ولكنه ربى القاعدة... القاعدة الصلبة الراسخة الإيمان القوية المتماسكة البنيان... والقاعدة ربت بقية الأمة بالقدوة الصالحة، وبالإشعاع المشرق الذي يصدر عن النفوس الصافية الراسخة الإيمان[٣٠].

ونحتاج اليوم لذات المنهج الذي أزال الغربة الأولى للإسلام، لنزيل به الغربة الثانية، مقتدين في ذلك بأعظم الخلق في التاريخ، محمد بن عبد الله ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢١].



[٣٠] في النية إصدار كتاب بعنوان " كيف ندعو الناس " أرجو الله أن ييسر كتابته.

(٤)
المستقبل للإسلام

ينظر بعض الناس إلى حرب الإبادة التي تواجه المسلمين في كل الأرض، وإلى التكتل العالمي، الصليبي الصهيوني الوثني ضد الإسلام، والمؤامرات التي تحاك بتخطيط شيطاني على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية... فتسودّ الدنيا في عيونهم، ويقولون: هل للإسلام مستقبل في الأرض؟!

ثم إذا تحدثنا عن المشوار الطويل الذي يجب أن تقطعه الصحوة حتى تؤتي ثمارها الصحيحة، وما تحتاج إليه من صبر وأناة وتجرد وطول نفسٍ ومثابرة على بذل الجهد يتأفف كثير من الناس... بعضهم يقول: نريد حلاً سريعاً، فالأعداء لا ينتظرون بل تتوالى ضرباتهم كل يوم، وإن لم نبحث عن حلٍّ سريع فستجتاحنا مخططاتهم وسيبيدون المسلمين قبل أن يتمكنوا من الرد عليهم... وآخرون يقولون: وهل هناك مجال للسياسة الطويلة الأمد، والحرب دائرة على أشدها في كل مكان، وكلما جاءت طائفة من الشباب فاتجهت إلى الإسلام أبيدت، إما بالسجن والتعذيب والتشريد وإما بالقتل المباشر، فأنّى تتأتى الفرصة للتربية المنشودة، وأنّى تتحصل الثمار؟!

وعلى الرغم من ذلك كله نقول: إن المستقبل للإسلام!

نقولها مطمئنين... لا رجماً بالغيب، ولا حالمين! بل واقعيين جد واقعيين!

إن الغرب الصليبي الصهيوني، وحلفاءه الوثنيين، هم الذين يمدون الصحوة بالقوة اللازمة لها لتعيش، وليصلب عودها ويشتد، ولتكتسب المناعة ضد ما يصب عليها من المبيدات!

وقد يبدو هذا الكلام لأول وهلة متناقضاً بعضه مع بعض، بل قد يبدو شططاً في الفكر لا يتقبله منطق سليم! ولكنا نقول للناس: انظروا إلى الواقع!

وخذوا البوسنة والهرسك نموذجاً من نماذج الواقع!

لقد كان كثير من أهل البوسنة والهرسك قبل المذبحة الأخيرة قد ضاعوا تماماً من وجهة النظر الإسلامية. كانوا تحت الضغط المستمر، وثقل الأمر

الواقع سواء قبل الشيوعية في أثنائها، قد نسوا إسلامهم، رجالاً ونساء وأطفالاً، ولم تعد تستطيع أن تفرقهم في شيء عن جيرانهم من الصرب أو الكروات، في مظهرهم ولا عاداتهم ولا أفكارهم ولا أخلاقهم... كانوا كما أخبر رسول الله ﷺ عن بعض الأقوام في آخر الزمان الذين يقولون: سمعنا آباءنا يقولون لا إله إلا الله! ثم جاءت المذبحة وهم على ذلك... فكيف حالهم اليوم؟!

لقد عادوا!

عادوا فأحسوا أنهم مسلمون! ذلك أن أعداءهم، والعالم الصليبي الصهيوني كله، يحاربونهم لأنهم مسلمون! فذكرتهم الحرب بصفتهم التي كادوا ينسونها وعادوا إلى الإسلام!

ثم لم يكن هذا وحده... بل قاموا يقاتلون تحت راية الإسلام! وتكوّن لديهم جيش مقاتل تعداده الآن[٣١] مائة وعشرون ألفاً، يجاهدون جهاداً إسلامياً تحت راية لا إله إلا الله! وكلما أمعن الصرب في أعمال الإبادة الوحشية ازدادوا يقظة لإسلامهم، وتشبثاً به وذوداً عنه، وقتالاً في سبيله!

أخيال ذلك وأحلام؟ أم واقع مشهود تتكلم عنه الصحافة وغيرها من وسائل الإعلام؟

وما يحدث في هذه البقعة الصغيرة من الأرض، يحدث مثله على نطاق واسع في كل الأرض.

فماذا أنتجت المذابح التي أقامها الطغاة للإسلاميين في بلاد الإسلام؟ هل قضت عليهم؟ هل أوقفت المد الإسلامي؟ لقد قتل مئات وألوف، تحت سياط التعذيب، أو على مشانق الاضطهاد والظلم... هم شهداء عند ربهم... ثم اتسعت القاعدة بعد كل مذبحة! وجاءت عينات من الشباب أكثر صلابة وأشد بأساً وأكثر وعياً بحقيقة موقفهم من الطغاة وموقف الطغاة منهم... وأكثر تصميماً على المضيّ في المشوار الطويل!

---

[٣١] نحن الآن في رجب من عام ١٤١٣ هـ.

إن الحلم الذي يساور الأعداء بإمكان القضاء على الإسلام وعلى الصحوة الإسلامية، حلم تقوّضه ذات الوسائل التي يتخذونها في حربهم للإسلام والمسلمين!

إن وسائلهم ذاتها هي التي تزيد المدّ الإسلامي، وتوسع قاعدته، وتصلّب عوده وتجعله أقدر على الصراع الطويل!

وعقلاؤهم أنفسهم يقولون لهم ذلك... ولكنهم - في حقدهم المجنون - لا يستمعون لصوت العقل، ولو كان آتياً من عند عقلائهم أنفسهم!

لقد قال قائل منهم - في حديث صحفي - إنه لا بد من موقف المجازر التي يقوم بها الصرب للمسلمين في البوسنة والهرسك، لأن رد الفعل سيكون في غير صالح النصارى المعتدين. فسأله الصحفي الذي يأخذ منه الحديث: كيف تقول ذلك وأنت "مسيحي"...؟ كيف تنتصر للمسلمين وتقف في صفهم؟! فقال: ألا تخشون ردة الفعل الإسلامية؟ ماذا لو فعل المسلمون بالأقليات المسيحية ما يفعله الصربيون بالمسلمين؟!

والمسلمون لن يصنعوا ذلك أبداً بطبيعة الحال، لأن دينهم يقول لهم: من آذى ذميّاً لدينه، فقد برئت منه ذمة الله تبارك وتعالى، وقد بيّن الله لرسوله كيف يخاطب أهل الكتاب وكيف يتعامل معهم: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، الآية: ١٥].

ولكن تظل ملاحظة الرجل صحيحة من وجه آخر... فإن استمرار مذابح الغرب وعملائه للمسلمين، ستزيد من حدة التيار الإسلامي، وتمدّ الصحوة بمبرر جديد وعزم جديد!

إن الخيار المفتوح أمام الغرب الصليبي الصهيوني وعملائه ليس هو الإبقاء على الإسلام أو القضاء عليه! فذلك من تزيين الشيطان لهم، الذي يمنيهم بأن في استطاعتهم أن يقضوا على الصحوة الإسلامية إذا شددوا عليها الحرب، فيكون هذا - في تدبير الله - هو الأداة ذاتها التي يقدرها الله لزيادة حجم الصحوة وتعميقها وترسيخها!

كلا! ليس الخيار المفتوح أمام الغرب وعملائه هو الإبقاء على الإسلام أو القضاء عليه! إنما الخيار المفتوح أمامهم هو بين تيار إسلامي هادئ، يعمل في رزانة وتؤدة، ليصل على مهل إلى أهدافه، وتيار غاضب صاخب، يلجأ إلى العنف ويستعجل الطريق! والغرب وعملاؤه هم الذين يختارون – بتقدير الله – أي التيارين هو الذي يحبون أن يلاقوه!

ونحن نفضل ألف مرة التيار الهادئ، الذي يعمل في رزانة وتؤدة، ولو استغرق عمله بضعة أجيال! ولكن ما حيلتنا في حماقات الغرب، وحماقات إسرائيل؟!

الإسلام قادم... من أي طريقيه جاء! سواء الطريق الهادىء المتئد الذي نفضله نحن ولو استغرق بضعة أجيال، أم الطريق الصاخب الغاضب الذي ينضجه الغرب على ناره!

والذين يقولون إن الصحوة حادث عارض يمكن أن يذبل ويموت، أو مجرد "رد فعل" للاستعمار الغربي من ناحية، وإخفاق النظم المستوردة في إصلاح الأحوال من ناحية أخرى... هؤلاء وأولئك يغفلون عن أمور كثيرة فتصبح رؤيتهم مهتزة وناقصة.

يغفلون عن أن الإسلام دين الفطرة: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم، الآية: ٣٠].

فإذا اعتلت الفطرة فترة من الوقت ثم عادت إلى الصحة، فلا يُسأل: لماذا عادت؟! لأن الصحة هي الأصل! إنما يجري السؤال عن المرض: كيف حدث؟ وكيف يكون العلاج؟

ويغفلون ثانياً أن الله – سبحانه وتعالى – تكفل بحفظ دينه حين تكفل بحفظ كتابه وسنة رسوله ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٩].

كما تكفَّل - سبحانه وتعالى - بأن يبعث على رأس كل جيل من يجدد للأمة أمر دينها، فلا ينقطع الخيط بينها وبينه على مدى أجيال...

ويغفلون ثالثاً أن الإسلام لم يكن بالنسبة للأمة الإسلامية مجرد وجدانات تحتل مشاعرهم، بل كان إلى جانب الوجدانات عقيدة حية متحركة تتمثل في نظام واقعي شامل متميز عن كل أنظمة الأرض، وحركة دائبة دفاقة في كل جانب من جوانب الحياة: السياسية والاجتماعية والفكرية والعلمية والعمرانية والفنية... وأن هذا كله قد تواصل عدة قرون متوالية كانت الأمة الإسلامية فيها ملء سمع العالم وبصره، ومصدر تأثير في مجريات الأمور في العالم كله... فإذا كانت قد أصابتها العلل فأمرضتها وأقعدتها، وأفقدتها كثيراً من خصائصها ومقوماتها... فما يزال في ذاكرتها من الرصيد الواقعي لهذا الدين ما يحفزها إلى العودة، ويدلها على الطريق.

لذلك كله فإن الصحوة هي الأمر الطبيعي الذي لا يستغرب، ولا يبحث له عن أسباب!

ومع ذلك فلنفترض جدلاً أن ما يقولونه صحيح، من أن الصحوة كانت مجرد رد فعل للاستعمار الغربي من جهة، وعجز النظم العلمانية المستوردة عن حل مشاكل العالم الإسلامي من جهة أخرى... فما الذي تغير في هذين الأمرين حتى يُظَنَّ أن دوافع الصحوة قد انتهت، وأن مصيرها إلى الانطفاء؟!

هل انتهى الاستعمار؟

أم انتهى عجز النظم المستوردة عن حل مشاكل العالم الإسلامي؟!

فأما الاستعمار العسكري فيمكن لقائل أن يقول إنه انتهى، وإن كان قد بدأ يعود مرة أخرى متلفعاً في هذه المرة بعلم الأمم المتحدة! وأما الاستعمار الاقتصادي والثقافي والسياسي فمنذا الذي يزعم أنه انتهى أو أنه في سبيله إلى زوال قريب؟

وخذ نموذجاً واحداً منه في السوق الأوربية المشتركة...

إنها ولا شك موجهة ضد أمريكا من الوجهة السياسية، وضد اليابان من الوجهة الاقتصادية... ولكنها موجهة كذلك - وبعنف - ضد ما يسمونه - للتمويه - العالم الثالث، وحقيقته أنه العالم الإسلامي، لقهره اقتصادياً

وسياسيّاً وفي كل مجال، بإجباره على بيع مواده الأولية بأبخس الأثمان، وتصنيعها ثم ردها إليه مصنَّعة بأغلى الأثمان! وتعميق معنى التبعية والعجز في حسه لكي يعجز عن النهوض.

وخذ نموذجاً في إنشاء جامعة سنجور "الفرانكوفونية" بالإسكندرية... ما دلالتها؟ وما الغاية التي يمكن أن تؤديها في مصر الإسلامية العربية اللسان؟!

وأما عجز النظم المستوردة، فحدث عنه ولا حرج، فهو واقع مشهود تشهد به قوائم الديون، وتضاؤل قيمة العملات، وسوء الأحوال الاقتصادية، وتفشي الفساد والرشوة، وانعدام الإحساس بـ "المصلحة العامة"، وانهيار القيم الخلقية، وشيوع الفاحشة في المجتمع... إلى عشرات من السلبيات في كل مجال، عشرات من المظالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الواقعة على الناس...

فإذا سلمنا - جدلاً - بأن الصحوة لم تكن إلا رد فعل للاستعمار وفشل النظم المستوردة، فالمنطق الواقعي يقول: إن الصحوة إذن في طريقها إلى مزيد من الرسوخ واتساع القاعدة، لأن أسبابها - المفترضة - آخذة في الازدياد!

ولسنا ننفي أن الاستعمار وفشل النظم المستوردة التي رعاها الاستعمار كان لهما أثر في قيام الصحوة، ولكنا نقول فقط إنهما كانا مجرد حافزين، أو عاملين منشطين منشطة... أما الأسباب الأصيلة فهي التي ذكرناها قبل قليل.



الإسلام قادم... من أي طريقيه جاء...

ولو تعقل الغرب، وتخلص من حقده الصليبي الصهيوني، ما أعلن الحرب على الإسلام، ولا أوغل في خصومته...

إن الإسلام ليس عدوّاً للغرب، وليس عدوّاً للبشرية. بل إنه في الحقيقة هو "المخلّص" الذي جاء ليطهر البشرية من أدرانها، ويرفعها إلى المكانة اللائقة بـ "الإنسان" الذي كرمه خالقه وفضله على كثير ممن خلق: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٠].

وحين يعود الإسلام إلى التمكين اليوم أو غداً فلن يكون على حساب "المصالح المشروعة" لأحد من البشر الأسوياء على وجه الأرض، ولكنه دون شك لن يقبل الطغيان، ولن يقبل - بصفة خاصة - وقوع العدوان على المسلمين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [سورة الحج، الآيات: ٣٩ - ٤١].

ولكن الغرب الصليبي الصهيوني لا يريد أن يكف عن العدوان، ولا يريد في الوقت ذاته أن يتمكن المسلمون من الرد!

ومن كان في شك من هذه الحقيقة فلينظر مأساة البوسنة والهرسك، حيث يقف "العالم المتحضر" كله صفّاً واحداً لمنع وصول أي نوع من المدد يمكّن المسلمين من رد عدوان الصرب عليهم! كما يقف الوقفة ذاتها من كل المذابح التي تقام للمسلمين في كل الأرض... ويوم يردون - بأي وسيلة من وسائل الرد - يصبحون هم المعتدين!

من أجل ذلك، وبدافع من الحقد الصليبي الصهيوني، يكرهون الإسلام... ولو تعقلوا... لو كفّوا عن الظلم... لو وقفوا عند "المصالح المشروعة"، ما أحسوا قط بالعداء نحو الإسلام.



بل إن الإسلام - وحده - هو الذي يملك المنهج الذي يمكن أن يصحح اختلالات الغرب وجنوحاته...

لقد تخبط الغرب عدة تخبطات منذ عهد "النهضة" إلى الوقت الحاضر... منذ تمرد على دين الكنيسة ولم يدخل في الوقت ذاته في الإسلام، وأقام حضارة مادية خاوية من القيم، وخاوية من الروح...

انتقل الغرب من دين يحارب العلم - في الفترة الكنسية - إلى علم يحارب الدين!

ومن دين بلا حضارة إلى حضارة بلا دين!

ومن دين أخروي يوجه همه إلى "ملكوت الرب" في الآخرة ويهمل الحياة الدنيا إلى "دين"[٣٢] يتوجه بكل قوته إلى العمارة المادية للأرض، ويهمل الآخرة بل يسقطها من الحساب!

ومن دين يمجد الإله ويحقّر الإنسان، إلى دين يمجد الإنسان ويلغي من حسابه وجود الله!

ومن دين يؤكد على الثوابت ويلغي من حسابه التغيير، إلى دين يؤكد على "التطور" ويلغي من حسابه الثبات[٣٣]!

وذلك فضلاً عن الاختلالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الناشئة أساساً من تشريع البشر لأنفسهم، ورفضهم الالتزام بما جاء من عند الله...

والإسلام - وحده - هو المنهج الذي يمكن أن يصحح هذه الاختلالات.

فهو دين لا يحارب العلم ولا الحضارة... بل هو الدين الذي انبثق منه التقدم العلمي الهائل الذي تعلمت منه أوربا في نهضتها، وهو الدين الذي أنشأ أكمل حضارة في التاريخ... الحضارة التي شملت الإنسان كله؛ روحه وجسده، عمله وعبادته، فكره ومشاعره، وعمله من أجل الدنيا وعمله من أجل الآخرة، في توازن واتساق.

الدين الذي يمجّد الله - سبحانه وتعالى - ولكنه لا يحقر الإنسان، بل يمنحه كرامته وإيجابيته وفاعليته، لأن الله هو الذي كرمه، وسخَّر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، وأقامه في الأرض ليعمرها.

الدين الذي يؤكد على القيم الثابتة ولكنه يفتح المجال في الوقت ذاته للنمو الدائم في كل مجالات الحياة...

---

[٣٢] نستخدم لفظ الدين هنا بمعناه اللغوي، أي المعتقد الذي يدين به الإنسان على إطلاقه، ولو كان فاسداً كما في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، فالشرك الذي كان عليه العرب هو دين بالمعنى اللغوي وإن كان فاسداً.

[٣٣] تحدثت عن هذه الاختلالات في كتاب "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" ص ٢١٣ — ٢٢٣.

وفضلاً عن ذلك فهو الدين الذي يحوي الشريعة الكاملة التي تتسع لكل ما يجد في حياة البشرية وتضبطها بالميزان الرباني...

باختصار هو الدين الذي ينشئ "الإنسان الصالح" الذي يعبد الله حق عبادته وينطلق في الوقت ذاته يعمر الأرض بمقتضى المنهج الرباني، ويجعل عمارة الأرض على هذا النحو جزءاً من "العبادة" المطلوبة من الإنسان.



ثم إن الجاهلية المعاصرة التي تسيطر عليها الصليبية الصهيونية هي اليوم في طريقها للانهيار...

ولقد انهار منها شِقّها الشيوعي بالفعل، ولم يكن أحد من الناس يتوقع انهياره، أو على الأقل، لم يكن أحد يتوقع انهياره بهذه الصورة المفاجئة كأنما في لمحة... على الرغم من كل القوة المادية والحربية التي أرعبت الناس أكثر من نصف قرن من الزمان، وعلى الرغم من الدعاية التي طبقت الآفاق وأغوت الملايين من الناس!

أما الشق الآخر - الرأسمالي- فقد يتأخر انهياره بعض الوقت - لحكمة يريدها الله وقد تنتقل السلطة فيه من بلد إلى آخر لفترة من الوقت، ولكنه - حسب سنة الله - لا ينجو من الانهيار.

والذين سمعوا الخطبة البليغة المنمقة التي ألقاها كلنتون يوم تنصيبه رئيساً للولايات المتحدة، لا بد أن يكونوا قد لاحظوا - في وسط البلاغة المتدفقة والحماسة الظاهرة - أنها تنطوي في الحقيقة على صيحة إنذار! صيحة رجل يرى بوادر الانهيار، ويحاول جاهداً أن يمنع الانهيار!

وحين تنهار الجاهلية المعاصرة في النهاية، فالوريث هو الإسلام، لأنه المنهج الصحيح الذي نزل من عند الله ليصحح اختلالات البشرية، ويرشدها إلى الصراط المستقيم...



الإسلام قادم... من أي طريقيه جاء...

وحين يعود الإسلام إلى التمكين مرة أخرى في الأرض كما بشر رسول الله ﷺ في أكثر من حديث صحيح(٣٤)، فسيقوم العالم الإسلامي من وهدته ليحمل الراية من جديد لهداية البشرية، وسيدخل في دين الله أقوام لم يكونوا قد دخلوا فيه من قبل، وستملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً من قبل، وسيذوق الغرب ذاته النعمة الربانية التي منَّ الله بها على عباده، وسيعلم الناس هناك أن عداوتهم للإسلام كانت حماقة لا مبرر لها في واقع الأمر، وأنهم – من اهتدى منهم – قد خرج من الظلمات إلى النور.

والصليبية الصهيونية وعملاؤها هم الذين يسخرهم الله – حسب تقديره سبحانه وتعالى – ليحددوا الطريق الذي يعود به الإسلام إلى التمكين في الأرض... فإما تيار هادئ متئد، وإما تيار غاضب صاخب عنيف...

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧].



(٣٤) جاء في الحديث الصحيح: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله) أخرجه مسلم، وجاء في الحديث الصحيح كذلك: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضّاً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبريّاً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة) رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان.

الفهرس

